# محمد نصيف

# ذكريات لا تُنسى

زهير الشاويش

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م - الرياض
الطبعة الثانية ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م - بيروت

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ٣٧٧١/١١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أيها الحفل الكريم..(*)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. **وَبَعْـد:**

فكل إنسان يمرُّ أمام عينيه يومياً العديدُ من الأشخاص، ويتعاملُ مع عددٍ كبيرٍ منهم أيضاً، ثم يرتبط ببعضِهم في صلاتٍ مختلفةٍ تَقْوَى وتَضْعُفُ لعواملَ متعددةٍ، مثل التعايشِ اليوميِّ، أو الزَّمالةِ في الدراسة، أو المجاورةِ في السكنى أو العمل، أو التجارةِ، أو البيعِ والشراءِ، أو المشاركةِ في الرأي الواحد، أو التعاونِ على المضيِّ في نصرته. وقد يستمر هذا لسنواتٍ طوالٍ فيما بينهم.

---

(١) ملخص كلمة الشيخ زهير الشاويش في حفل توزيع كتاب «محمد نصيف» في جدة مساء الأربعاء ٢٠ جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ ـ ٢٣/١١/١٩٩٤ م

ولكن إذا دارتِ الأيامُ دورتَها، وتباعد الناسُ بعضُهم عن بعض، فالنسيانُ يغطي الكثيرَ من الوجوه، ويُخفي الأكثرَ من الذكريات، ويَطْغَى على الكثيرِ من الأعمال، وتتبخرُ المواقفُ وتتشابَهُ الصورُ، وتضيعُ الجزئياتُ، ولا يبقى في النفوس من ذلك إلا القليلُ، والذي يَشُذُّ عن هذا ويبقى ماثلاً للعِيان، شاهداً على البقاءِ، مذكِّراً بالثوابتِ، الشوامخُ من الرجال، والكبيرُ مِنَ المواقفِ والأعمال.

ومن هذا الباقي:

## الشيخ محمد نصيف

وقَدَّرَ اللَّهُ ـ فضلاً منه وتكرماً ـ أن أُدعىٰ لهذا الحفلِ، وأن يكون لي شرفُ المشاركةِ بكلمةٍ، وأن أَحْضُرَ لذلك من غربِ بلاد الشام وعروسِ بحرهِ الأبيضِ بيروتَ، إلى جنوبِ شرقِ الجزيرةِ إلى عروسِ البحر الأحمرِ جُدَّةَ، ويحدوني الحنينُ إلى بيت الله الحرام، وما جاوره من ثغوره وفيافيه ومعالمه، ومنها منزل **محمد نصيف**.

ولئن قدَّر اللَّهُ ليَ أن أعيشَ إلى زمنٍ أكون فيه ممن يتكلمُ بحفلٍ يقام وفاءً للشيخ بمناسبة توزيع

كتاب «**محمد نصيف**» لأنني من أصحابه! إنه لأمرٌ عجيبٌ.. لأنني قد أكونُ أضعفَ أصحابهِ، أو أقلَّهم جدارةً بذلك، ويزداد العَجَبُ إذا عَرَفنا أن «**محمد نصيف**» كان يملأ الدنيا، وهو الرجلُ الكبير في كلِّ مراحلِ حياته، وقد بقي ذكرُه كبيراً وحيَّاً بعد وفاته.

وكلُّ ما أذكره عنه مما شاهدتُه، أو سمعتُه، هو ممَّا ذاعَ وشاعَ من أخباره عند غيري من الناس من أخلاقه، وكلُّها: كريم، وجميل، وجيد، يصلح أن يكون قدوة للناس.

وإني إذ أَحْمِلُ للمشاركين بهذا الحفلِ الكريمِ من الصَّحْبِ والأهلِ تحياتِ أصحاب الشيخ محمد في بيروتَ، ودمشقَ، وعمانَ، ومَنْ تفرّقوا تحت كلِّ نَجمٍ من بلادِ الله الواسعةِ، وأخصُّ منهم الأُستاذَ عصام العطار، والأستاذَ عبد الرحمٰن الباني، والدكتور محمد الصباغ، وأهلي وأولادي وإخواني في المكتب الإسلامي، الناشر للكتاب.

وأَحْمِلُ ـ أيضاً ـ ذكرياتِ مَن توفَّاهم الله من

صَحْب الشيخ محمد، وأذكر منهم أُستاذَنا العلاَّمَة الشيخَ محمد بهجة البيطار، وسماحةَ الحاج أمين الحسيني، والمجاهدَ الشيخ كامل القصاب، والعلامةَ الشيخ سعدي ياسين، والشيخَ عاصم رضا، والشيخَ عبد الله القلقيلي، ومفتي لبنانَ الشهيدَ حسن خالد. وما لي لا أذكر والدي وقد كان من محبي الشيخ، وكان الشيخ يحبه ويثني عليه ـ رحم الله الجميع ـ.

وما أَقَلَّ مَنْ ذكرتُ، وأَكْثَرَ مَنْ نسيتُ أو لم أذكرْهم. وكلُّهم أهلُ وفاءٍ للشيخ محمد نصيف.

لقد كان الشيخ محمد نصيف يَصِلُ ويواصِل كلَّ أحبابهِ في جُدَّةَ والحجازِ، وفي كلِّ مكانٍ وإن حَجَبَتْ بينه وبينهم البحار ونأتِ البلادُ والأقطار.

وهل هناك مكتبةٌ عامةٌ أو خاصة عَرَف أصحابُها الشيخ محمد نصيف، وليس فيها كِتابٌ أو كتبٌ هديةً منه. وكم أرسل من مخطوطاتِه ـ أو مصوراتِ مكتبتهِ ـ لِمَنْ عَلِمَ أنه يحقّق كتاباً ما، أو يدلّه على أماكن تلك الأصولِ، أو المصادرِ والمراجع.

# بيت نصيف

ففي أَوّل مرةٍ جئتُ للحجّ، كان هذا البيتُ أولَ سقفٍ يُظِلُّني في الحجاز.. وكم كان ظِلُّه ظليلاً بأطيبِ العطور من شجرة النيم (أو السيم) المجاوِرة للباب ـ والتي فرّخت الألوف من الأشجار في شوارع جُدّة بعد ذلك ـ إلى زجاجات العُود الهنديِّ القُماري توزع علينا، لأنها من طيُوبِ الكعبةِ المشرَّفة، إلى ماءِ الزهر من طرابلسَ الشامِ في شرابِ الليمون، إلى الكَادِي اليمني في شَرابِ اللوز، إلى عِطْرِ الورد الطائفيِّ، إلى آخرِ ما لذَّ وطابَ وحَسُنَ، حتى من الثياب.

ولم يكن هذا عن حاجةٍ.. لكنَّ الشيخَ كان يُعطي المحتاجَ وغيرَ المحتاجِ، وفوقَ كلِّ ذلك وأمتعُ منه أحاديثُ الشيخ محمد نصيف التي تذكِّرنا بما قيل في عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رحمه الله:

إنك يا ابنَ جعفرٍ خيرُ فتى
وخيرُهم لطارِقٍ إذا أَتَى
ورُبَّ نضوٍ طرقَ الحيَّ سُرَى
صادفَ زاداً وحديثاً ما اشتهى
إن الحديثَ جانبٌ من القِرَى

وفي هذا البيت تعرفتُ ـ أو اجتمعتُ ـ بالعدد الكبير من أهل العلم والفضل من مختلف أقطار الدنيا.. ولقد زاد مَنْ أذكر منهم على المئات، وأكثر من ذلك مَنْ غابت عني أسماؤهم الآن، وبقيت أوصافهم وأشباحهم وأخبارهم وعلومهم.

وما كان لي ـ ولا لغيري ـ أن يلتقيَ بمثل هذا العددِ الكبير.. لولا وجودُ الشيخِ محمد الرجلِ الكريمِ، ورحابةُ صدرِهِ، ووجودُ هذا البيت العامرِ المتَّسِعِ بالترحيبِ والكرم. وفي البيوتِ ما هو أكبرُ منه، والمالُ عند الناس، ولكنَّ الكرمَ يحتاجُ إلى سماحة النفس، قبل وَفْرةِ المالِ، **ومَنْ مَلَكَ المالَ بيدِهِ يَسْهُلُ عليه إنفاقُه. ومَنْ مَلَكَ المالَ في قلبِهِ صَعُبَ عليه إخراجُه.**

إنَّ السلاحَ جميعُ النَّاسِ تحمِلُه
وليسَ كلَّ ذواتِ المِخْلَب السَّبُعُ

لقد كان هذا المنزلُ مهوىٰ أفئدةِ أهلِ العلم، يَفِدُون إليه ويغادرونَهُ مزوَّدين بمعرفةِ صاحبهِ، وحُسْنِ رأيه وخِبْرَتهِ، وبالكتبِ تَمْلأُ الحقائبَ.

وكما قال نصيب بن رباح في سليمان بن عبد الملك رحمهما الله:

وعاجُوا وأَثْنَوا بالذي أَنْتَ أهلُه
ولو سكَتُوا أَثْنَتْ عليك الحقائبُ

لقد كان هذا البيتُ ملتقى أهلِ العلم والدعوة، وتجمعهم أيامَ الحجِّ والعمرةِ مع تباعدِ بلادِهم، وأحياناً اختلافِ ألسنتِهم. كان هذا البيتُ مثالَ ما صارت إليه ـ فيما بعد ـ «رابطة العالم الإسلامي» أيام حفيده الدكتور عبد الله ـ حفظه الله ـ.

# أصحاب نصيف وأهله

جئتُ ـ الآنَ ـ إلى جُدّة وأنا خائفٌ أن لا أجدَ من أبلِّغه تحياتِ الحاضر والماضي.. بعد أن طال الزمنُ وتباعدتِ الأيامُ والسنوات.

ولكنني بفضل الله وجدتُ هذا الحفلَ الكريمَ الجامعَ للخِيارِ من الناس، وأهلِ الوفاءِ لأصحاب الفضل، والاعترافِ بالجميل. وتذكرُ الحسناتُ، ممن صحب الشيخَ «محمد» ورافقه، وممن عَرَف أخبارَه فعظمه.

ورأيتُ الأفاضلَ من حفدته الذين ساروا على دربهِ، وتابعوا خُطُواتِه. بارك الله فيهم وبأهلِ الحجاز، ومكةَ المكرمةِ، وجُدَّة مِبْنَاءِ بيتِ الله الحرام.

وسلامي هذا وإن كان من قادمٍ يحمل تحياتِ الماضي، فإنه يُعتبر جديداً، وإن بلغتُ السبعين من العمر، وعندي من أخبار الماضي ما أرجو أن يُفْسَحَ

لي المجالُ لكلمةٍ أذكر لكم فيها مواقفَ قليلةً مما كنتُ أشاهدها من الشيخ محمد نصيف.

لعلَّ بعضَكم يذكر اليومَ الأولَ لافتتاح «رابطة العالم الإسلامي» وقد جاء الشيخ محمد نصيف متأخراً قليلاً، وقد أخذ الجميعُ أماكنَهم حَسَبِ الترتيبِ الموضوعِ، وفي الحفلِ الجمعُ الغفيرُ من الحُكّام، والأُمراءِ، وأهلِ العلمِ والدعوةِ والوجاهةِ من مختلَفِ أقطار العالم الإسلاميِّ.

وجلس الملِكُ فيصلُ بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ صاحبُ فكرةِ الرابطة ـ في صدرِ القاعة، وما أنْ شاهدَ الشيخَ محمداً قادماً في ذاك الازدحامِ غيرِ المنتظرِ.. حتى أشارَ بيدهِ إلى كبيرِ مَنْ حوله ـ وكان كبيراً حقاً ـ ففهم قَصْدَه؛ فأفرغ المكانَ القريبَ من الملكِ، ليدعُوَ الشيخَ «محمد نصيف» إليه ليكونَ بجوارهِ.

رحم الله الملِكَ فيصلاً، فقد كان كبيراً في إنزالِ الناسِ منازلَهم.

وقبل سقوطِ القُدْسِ جاء الشيخُ محمد إليها لمعالجة عينيهِ، فزاره رئيس البلد الذي قال: «الشيخ محمد نصيف يمثّل سلفَنا الصالحَ، وتاريخَنا التليد».

وما رأيتُ صاحبَ السموِّ الشيخَ علي آل ثاني ـ رحمه الله ـ على طوالِ صحبتي إياه يُعَظِّم أحداً مثلَ تعظيمِه للشيخ محمد نصيف، وأستاذي الشيخِ محمد بن عبد العزيز المانع ـ رحم الله الجميع ـ.

وكان هذا البيتُ يلتقي فيه العلماءُ، والملوكُ، ورؤساءُ البلادِ المغربيةِ والمشرقيةِ.. وقَلَّ أن زار أحدُهم الحجازَ ولم يَقْصِدِ الشيخ محمداً، ويجددَ العَلاقة به، أو ينشىءَ معه صلةً لم تكن.

وقد ٱجتمعتُ عنده بملِك المغربِ السابقِ محمدِ بنِ عرفة، وكان يحدثنا عن معرفتِه بالشيخِ منذ خمسين سنة.. وهذا الملك من أهل العلمِ والمعرفة. وكان في المجلس أحد سلاطين سواحلَ اليمن فقال له:

«لقربنا من جُدّة فإن علاقتنا بالشيخ أقدم من ذلك».

ورئيسا جمهوريةِ العراق عبدُ السلام عارف وأخيه عبدُ الرحمٰن ـ غفر الله لهما ـ كانا على أوثقِ الصلةِ به.

وكلُّ هؤلاءِ أمثلةٌ ونماذجُ لأن الحصرَ فوقَ الإمكانِ الآن.

وإنني أرى في احتفالِكم هذا تكريماً للمروءة ـ الضائعةِ عند بعضِ الخلق ـ وإنها باقيةٌ في الخيارِ من الناس، لأنكم أهلٌ للفضلِ، ولا يعرفُ الفضلَ إلا ذووه.

وإن التواصلَ بين الآباء والأبناءِ والحفدةِ في السير على خطٍّ واحدٍ يتمثل في هذا البيتِ المجاورِ لنا الذي بناه ـ زعيمُ جُدّةَ في أيامه، ووكيلُ أشرافِ مكةَ، والمعتَمَد من الدولة العثمانية الشيخ عمرُ بنُ عبد الله بنِ أبي بكرٍ نصيف ـ بناه من خشب سفينةٍ توقفت وتعطلت في جُدَّة، وتتابعت من هذا البيتِ الخدماتُ الكريمةُ تبرعاً للناس.

ومما لا شك فيه أن الرجلَ ٱبنُ بيئتهِ فلا بُدَّ

أنَّ الشيخَ محمداً كما تأثر بأهله، تَأَثَّر بأبناءِ بلدهِ الكرامِ من باقي أُسَرِ جُدَّة، والعشائرِ المحيطةِ بها، والوافدين إليها من الحُجَّاجِ والمعتمرينَ، والتجارِ.

ولَمَّا كان الشيخ محمد نصيف مَعْلَماً بارزاً في جُدَّة لمدةٍ تزيد على السبعين سنة.. فكلُّ من عَرَفه يُدرك أهميتَه في تلك الفترة من الزمن. وأنا لا أستطيعُ تخيُّلَ كيف تكونُ جُدَّةُ تلك المدةِ، من غير وجودِ محمد نصيف؟ ولكن أعْرِفُ أنّ «محمد نصيف» كان عنواناً لها..

وهذا له أمثلةٌ في تاريخِنا ومجتمعِنا: فاَسم حاتم الطائيِّ ملتصقٌ بالكرمِ، وعنترةَ بالشجاعةِ، والسلَفيةِ باَبنِ تيمية، والعقيدةِ ـ في المتأخرين ـ باَبن عبد الوهاب.

كما اَرتبطتْ دِمَشْقُ بمعاويةَ، ومصرَ بعمروِ بن العاص، والقُدْسَ بصلاحِ الدين، والجزيرةَ ـ في عصرنا الحاضرِ ـ بعبد العزيز الذي وحَّدها.

وأنا لَمَّا رأيت محاولاتِ الحفدةِ في متابعة

السيرِ على الدَّرْبِ الذي مشى عليه الشيخ محمد وأسلافُه، لبقاءِ هذا البيتِ مرجعاً للقادمِ ـ محتاجاً أو غيرَ محتاجٍ ـ والسيرُ على الخطِّ لا يعني بالضرورة: التطابقَ والتماثلَ. مع إقراري بأن الحاجاتِ والإمكاناتِ قد تغيَّرت، ولكنَّ بعضَ الأمورِ ما زالت تريدُ من يُساعد عليها.

وفي الناس من يَقْلِبُون ظَهْرَ المِجَنّ لمن أحسن إليهم، فيسلقونَهم بألسنةٍ حدادٍ.. بعد ٱنقضاءِ مُدّةِ حاجتهم. وقد شاهدتُ ذلك من بعض الذين أحسنَ إليهم محمد نصيف في حياتهِ، وسطَوْا على حقه ذِكراً، ومنزلة بعد مماته.

غيرَ أنني أنصحُ الحفدةَ بأن يتابعوا الإحسانَ لِمَنْ شكرَ، ولِمَنْ كفرَ، ولِمَنْ أنكرَ. فقد كان جدُّهم هكذا، ورأينا منه التسامح!! لأنّ «محمد نصيف» كاد أن يكون نسيجَ وحدِه. وليعلموا بأن هذا مركبٌ صعبٌ على نفوس أغلبِ الناس، ولكنَّ ثوابَ الله أكبرُ وأحسنُ. قال أبو الطيب:

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهم
الجودُ يُفْقِرُ والإقدامُ قَتَّالُ

وهذا الذي أذكره الآنَ، هو بعضُ ما يتَّسع له الوقتُ في هذه العُجالةِ، من صلةٍ دامتْ أكثرَ من ثلاثين سنةً.

وأذكر أن أوَّل لقاءٍ لي بالشيخ محمد كان في منزل أستاذِنا علامةِ الشام الشيخِ محمد بهجة البيطار ـ تغمده الله برحمته ـ بدمشق، ثم تتابعت الاجتماعاتُ في بيتهِ العامرِ في جُدَّةَ، وفي دمشقَ وفي بيروتَ، إلى ما قبلَ وفاته بيومينِ، وأنا أودِّعه في مطار بيروت.

ولمَّا كانت الأرواحُ جنوداً مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف فمن ساعة اللقاء الأول، وجدتُ ما شدَّني إلى توثيقِ الصلةِ به، ولم يتغيرْ هذا الأمرُ طِوالَ الصحبةِ والصلةِ.

وبعد أن تلقيتُ خبر وفاته بيومين، وصلتْني رسالةٌ كتبها ليلة وفاتهِ، وجعل تاريخها اليومَ الثاني

لوفاته ٧ ـ جمادى الآخرة ـ ١٣٩٠ هـ الموافق لـ ٣٠ ـ تموز (يوليو) ـ ١٩٧١ م. وسلَّمها لكاتبه ليضعَها في البريد صباحاً قبل الحضورِ إليه في المستشفى وهكذا كان. . . ولكنَّ الشيخَ أسلم الروحَ تلك الليلة

وكم كانت، هذه الرسالةُ عجيبةً فقد ذكر فيها الشيخ قبيل وفاتهِ بساعاتٍ أشياءَ من أعالي الأمور التي عوّدنا عليها ومنها: أنه أبرق لي ساعة وصولهِ إلى جُدَّة من بيروتَ، وكلفني أن أحمِلَ تحياتِه إلى بعضِ أصحابهِ، لأنه غادر بيروتَ بسرعةٍ دون أن يودِّعَهم، ويشكرَهم على ما قاموا به نحوَه. ويُسمي منهم:

ـ سماحة أستاذي الحاج محمد أمين الحسيني، الزعيمَ الإسلاميَّ الكبيرَ.

ـ فضيلة أستاذِنا العلامة الشيخ سعدي ياسين.

ـ والصديق الكريم الأستاذ سعيد العبار ـ رحم الله الجميع ـ.

ويضيفُ إلى ذلك شيئاً من تعاملِ بعضِ الناس، وطرائقهم في الخدماتِ، وتأديةِ الحقوقِ، حتى يذكر حساباتٍ لمبالغَ بسيطةٍ، أحبَّ التأكُّدَ من تسديدها ووصولِها إلى أصحابِها.. من مبلغٍ تركه عندي لهذا الغرض. وهل هناك أمانةٌ ودقةٌ أكبرُ وأعظمُ مما عند الشيخ محمد نصيف..

وأَمْرُ الأمانةِ وأداءِ الحقوقِ لأصحابها ٱفتقدناه عند كثيرٍ من الناسِ المتمولين واأسفاه!! وطال بنا العمرُ حتى سمعنا ممن كان يُظَنّ بهم العلمُ والأمانة: بأن الحقوقَ تموتُ بمرورِ الزمنِ؟! وأنّ التحكيمَ الشرعيَّ لا يعمل به؟!

وختم الشيخُ نصيف الرسالة بخطّه طالباً إليَّ أن أطبع عدداً من الكتب التي سبق لسماحتهِ أن طبعها أو مَوَّل طبعَها، مع شركاءَ له. وكان له ولشركائهِ حقوقُ إعادة طبعها خدمةً لدين الله في نشر عقيدة السلف. لتوزّع مجاناً، أو ما يشبه المَجَّان.

وألحَّ في رسالته على كتاب «التنكيل» تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمٰن المعلمي اليماني، و «تعليقات» الشيخ عبد الرزاق حمزة، و «طليعة» الشيخ محمد بهجة البيطار ـ رحمهم الله ـ.

وكم كان الشيخُ نصيف يستبقُ الحوادثَ بظنٍّ مُرْهَفٍ، ولله در القائل:

الألمعيُّ الذي يَظُنُّ لك الظَّنَّ
كـأنْ قَـدْ رَأَى وقَـدْ سَـمِـعَـا

وفي هذه الرسالةِ تجد أنّ الله سبحانه وتعالى قد حَفِظ على الشيخ محمد جميعَ حواسِّه من سمع وبصر وقوة.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«اللهم أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا»[1].

---

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير» للشيخ ناصر الألباني برتيبي رقم: ١٢٦٨.

وهذا الحفظُ ولا شكَّ من نِعَمِ الله على مَن شاءَ مِن عباده.. وكان الشيخ نصيف منهم.. ونسأله أن يحفظَ علينا قِوَانا، وأن لا يجعلَنا ممن قال فيهم:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل].

# السلفية والشيخ محمد

ولما كان الشيخُ محمد من معالمِ السلفيةِ في عصرنا، فلا بُدّ من كلمةٍ صغيرةٍ عن السلفيةِ التي هي المنهجُ الصحيحُ الموصِلُ إلى الله سبحانه. وهو ما كان عليه رسولُ الله ﷺ، والسلفُ الصالحُ المشهودُ لهم بالفضل.

وركائزُ السلفيةِ: العقيدةُ الصحيحةُ، ونَبْذُ البِدَع، والرجوعُ إلى الكتاب والسنة، والعملُ بهما، والإفادةُ من العلوم المستمدة من الكتابِ والسنةِ، والأخلاقِ التي جاء رسولُ الله ﷺ بإتمامِ صالِحها، والدعوةُ إلى ذلك بدَأَبٍ وإخلاصٍ، وبذلُ المال والجهدِ في سبيل ذلك، والزهدُ عما في أيدي الناس.

فمحمد نصيف أَخَذ من كلٍّ ذلك بنصيبٍ، وعَمِل في جميعِ ميادينِها بجِدٍّ ونشاطٍ واستمرارٍ. . وكانت أخلاقُه الحسنةُ تاجَ عملِه.

وقد شاركه في بعضِ ذلك أو كلِّه أشياخُنا وأشياخُهم الذين عَرَفنا فيهم الأخلاقَ الحسنةَ والآدابَ الرفيعةَ، نذكُرهم ونرجو الله أن يرحمهم. ومنهم على سبيل المثال لا الحصر:

آبنُ باديس، والقَسَّام، وبهجة البيطار، والخضر حسين، والبشير الإبراهيمي، وعبد الملك بن إبراهيم، ومصطفى السباعي، وقاسم الدرويش، ومحمد بن مانع، ونافع الشامي، وحسن البنا، وسعدي ياسين، وعبد الرزاق عفيفي، وتقي الدين الهلالي، وجمال الدين القاسمي، ومحمد بن إبراهيم، وعبد الله بن حميد، وغيرُهم كثيرٌ.

وفينا والحمد للَّهِ من الأحياءِ عددٌ كبيرٌ زادهم اللَّهُ من فضله. ووقَانا وإيَّاهم الزللَ والخطأَ. وأن يختِمَ لنا ولهم بالحسنى. ومنهم على سبيل المثال أيضاً:

المشايخ: عبدُ العزيز بنُ باز، وعلي

الطنطاوي، وناصر بن حمد الراشد، وعصام العطار، وعبد الرحمٰن الباني، ومحمد الصباغ، وابن عثيمين، ويوسف القرضاوي، ومحمد الغزالي، وعبد الله نصيف، وعمر الأشقر، وراشد الغنوشي، ومحمد الأحمد الرشيد، ومحمد سليم العوا، وعبد الله بن زيد المحمود، وأديب الصالح، وحمدي عبد المجيد السلفي، وطه الصابونجي، ومروان قباني، وغيرُهم..

# محمد نصيف صاحب المرامي

لم يكن الشيخُ محمد رجلاً عادياً، بل رأيتُه منذ اجتمعتُ به كهلاً عركته التَّجَارِبُ، واختبر الحياةَ حُلوها ومُرَّها. فكنتُ أرى منه الأحكامَ الصائبةَ، المبنيةَ على ذكاءٍ خارق، وعلمٍ متيقن، ومعرفةٍ طويلة بالناس، وأدبٍ جمّ، وبيانٍ واضح يعبر بواسطتهِ عما يريد باللفظِ الموجَزِ، والكلماتِ القليلة التي تحفظ، وفيها العظة والعبرة.

وكان يُلقي ذلك إلى السامعِ بغاية اللطف، وأحياناً يجعلُه على شكل سؤالٍ يوجَّهُ إلى من يجالِسُه مستفهماً عن الصواب ـ أو الأصوبِ ـ في الأمر الفلانيِّ، أو القولِ الذي تردّد على المسامع، وعندها يُدرك من كان فيه الخطأَ فيصححُ ما كان منه، أو يبدي وجهةَ نظره. ويدركُ الحاضرون ـ أو أكثرُهم ـ الغرضَ الذي رمى إليه الشيخ، من غير أن يُحْرِجَ المخطىء.

# محمد نصيف مداعباً

الشيخ محمد من أرقِّ رجالِ المجالس وألطفِهم، فقد كان صاحبَ مداعباتٍ مستساغةٍ وكناياتٍ بارعةٍ، مع تضمينها المعانيَ البعيدةَ والقريبةَ، ويقدّمها للسامع بشكلٍ مقبول.

وأذكر من ذلك ما كان يخصُّني به، فقد جعل من لقبي (الشاويش) مادة مشاكلات متعددة بيننا، فقد كان يحفظ عن (الشاويش) من موظفي الدولةِ العثمانية في الحجاز الكثيرَ.. وأكثرَ منه عن (الشاويش المصري) وما له من سطوةٍ وهيبةٍ في مَيْدَان الأمنِ، ومن الغفلةِ الأصليةِ في بعضهم حيناً، أو المكتسبة حيناً آخر من (روتين) تعامله اليوميِّ مع الناس، وما أضاف إليه من سوءِ التصرف.. وما أكثر ما كان يحفظ الشيخ من ذلك.. يَعْرِضُه عليَّ من غير أن أجد في نفسي منه أيَّ حرجٍ أو إحراجٍ.

ولكنَّ ذوقَ الشيخ كان يدفعه في كلِّ مرة، إلى أن يُضيف إليه ما يحفظ عن كلمة (الأفندي) وهي لقبٌ له توارثه عن أجداده، وهي رتبةٌ كانت تطلق على السلطان التركي، وعلى شيخِ الإسلام مفتي الدولة، وعلى بعض وجهاءِ البلد ـ كما هي الحال عنده ـ.

فكان يتخذ من لقبه (الأفندي) مادةً للمداعبة.. ولعله كان يذكرها تطييباً لخواطر جلسائه.

وكانت للشيخ نصيف في أحاديثه كلماتٌ وعباراتٌ موجزة ترمي إلى معانٍ بعيدة. يدركها السامعُ سواءٌ كان حديثُه في السياسة، أم الاجتماعِ، أم التاريخِ، أم التربيةِ، إلى غيرِ ذلك من الأغراض المتعددة.

وكم كنتُ أتمنى لو كانت الظروف تسمح بقولِ كُلَّ ما سمعتُ منه ونشرِه، فقد سجّلت الكثيرَ عنه، أو كتبَ به إليّ! ولكن أكتفي بذكر كلمات فيها الدلالةُ على ذلك منها:

- الشيخ محمد بهجة البيطار: بهجةُ الشام.
- الشيخ محمد رشيد رضا: ثابتٌ في العلم، متقلبٌ في السياسة، والصغار والكبار، والقضايا عنده في منزلةٍ واحدةٍ.
- الدكتور مصطفى السباعي: يطيعُ من كان عليهم أن يُطيعوه!
- الأستاذ عصام العطار: أرقُّ من النَّسيمِ، وأعفُّ مِن أن يُخاصِمَ أحداً.
- الشيخ عبد الملك بن إبراهيم: مَلِكُ آل الشيخ.
- الشيخ عبد الله القلقيلي: سهلُ الدخول، صعبُ الخروج.
- الشيخ كامل القصاب: حَفِظَ قروشَ الدولةِ الهاشميةِ، ثم الدولةِ السعودية، فبُدِّدت من بعدِه.
- الشيخ محمد بن إبراهيم: جبلُ علمٍ، يُخيف من حولَهُ.
- الشيخ عبد العزيز بن باز: عالمٌ عارفٌ بزمانِهِ وعصرِهِ.
- الإمام يحيى حميدالدين: رقمٌ عَجِزَ الغربُ عن حلِّهِ وفهمِه.

وكان رحمه الله يقول عن بعض العلماء: كَثُر عِلمُهم، وقلَّ عقلهم، فضاع علمُهم، وبقي في الناس شرُّ تصرفاتهم!! وسفاهةُ ألفاظهم!! أعاذنا الله منهم.

وأنا على يقين أنّ عند غيري الكثيرَ من أحكامهِ هذه على الأشخاصِ والقضايا.. والأملُ بحفدته أن يكلفوا من يجمعُها ويحسنُ عرضَها لتكون زاداً للمؤرخين. كما أرجو أن يقوموا بنشرِ جميع الرسائلِ التي عندهم، وسبق أنْ أطلعني الشيخ نصيف على أعدادٍ كبيرةٍ عنده، كانت ضِمْنَ دروجِ المجلسِ الكبيرِ بعضُها في دفاتر وبعضُها في ظروف. فلو نشرت مطبوعةً كان أحسن، وإن لم يتحقق ذلك فَلْتُصَوَّرْ وتفهرسْ لتسُدَّ ثَغْرَةً في تاريخنا، وحياتِنا الاجتماعيةِ، وعندئذٍ لا تضيع فوائدُها.

# كتاب
# محمد نصيف ـ حياته ـ وآثاره

هو مجلدٌ كبيرٌ، اشتمل على عشرةِ فصولٍ، ونصفُه وثائقُ نادرةٌ ومراسلاتٌ تاريخيةٌ يَصْعُب أن يطّلع عليها الناسُ لو لم تجمعْ في هذا الكتابِ الفريدِ، لأنها عادةً تكون من محفوظاتِ أصحابِها في مكتباتهم الخاصةِ، ووثائِقهم الحميمةِ، لأنها بحدِّ ذاتها كنوزٌ نفيسةٌ جداً عند من صدرت عنه، أو وُجّهت إليه. . ويتناقل حفظَها والعنايةَ بها والحرصَ عليها أهلُ الوعي من الورثة.

كما أنها تغطي ما لا يَقِلُّ عن سبعين سنة من تاريخ شخصٍ كبيرٍ، وبلادٍ عريقة بارَكَ اللَّهُ فيها، ودعوةٍ شَمِلَتْ العالمَ الإسلاميَّ كلَّه، وعاصرتْ أهمَّ أحداثِ المَنْطِقةِ، وما جرى فيها من تغيّراتٍ مهمةٍ، أخذت طابَعَ العنفِ حيناً، وطابَعَ التآمر حيناً آخر.

سبعون سنةً أُلغيتْ فيها الخلافةُ الإسلاميةُ التي بقيت من عهد الرسول ﷺ، وزالت معها دولةُ آل عثمان التي حكمت باسم الخلافة أربعَمِائةِ سنةٍ، وقبلَها باسم السلطنة قريباً من مائتي سنة. ودخل الأجانبُ إلى بلادِنا بالتحالفِ، أو بالانتدابِ، أو الاستعمارِ، أو المعاهداتِ.. وقُسِّمت باتفاقيةِ (سايكس) اليهودي وزميله (بيكو) بلادُنا إلى مناطقِ استعمارٍ، أو انتدابٍ، أو نفوذٍ، وجُعِلَتْ ثروتُنا نَهْباً للأعداء، وكِيدَ لفلسطين بوعدِ بلفور.. وأقمنا أكثرَ من عشرين دولةً عربيةً امتازتْ عن دولِ الدنيا بالتخاصمِ بينها.. والتوادِّ مع أعدائها؟ وجعلْنا بأسنَا بيننا شديداً.

في هذا الكتاب تجدُ بين السطورِ مكامنَ العلةِ التي هي محلُّ الشكوى، وموضع الألمِ الذي ما زلنا نُحِسُّه.

وفي هذا الكتابِ ستجدُ من خصوصياتِ عَلاقاتِ محمد نصيف وآرائهِ فيمن تعامل معهم من

الناسِ أو مع أنفسهم.. وحتى تعرفَ أهميةَ ذلك يجبُ أن تعرفَ بأن الذين تخصهم هذه العلاقات هم: الملوكُ، والعلماءُ، والأُمراءُ، والكبارُ من رجالات العالمِ الإسلاميِّ.. على مَدَى سبعين عاماً.

فمِن أشرافِ مكةَ وملوكِها ـ وقد كان معتَمَدهم في جُدّة ـ إلى المتصرفينَ والولاةِ وقادةِ الجيش في الحجازِ أيامَ الدولةِ العثمانيةِ، إلى الملكِ عبدِ العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود، مروراً بجيش الإخوانِ الذين افتتحوا الحجازَ، إلى المؤتمرِ والمشاوراتِ التي عُقِدتْ في تلك الفترة، إلى أن ٱستقرتِ الحالُ ببيعةِ الملك عبدِ العزيز، في بيت نصيف!

والكتابُ وإن لم يسردْ ذلك سَرْدَ كتبِ التاريخِ المدرسيةِ، فقد وضَعَ بين يدي المؤرخِ وطالبِ المعرفة المسائلَ التي يُبنى عليها التاريخُ، وتُعرفُ فيها الحقائقُ بسردٍ أمينٍ، بعيدٍ عن طرائقِ الدعايات

الخاصةِ التي يَعْرِضُها عادةً أصحابُها، ومن يساعدُهم من المنتفعين ـ وأكثرُها كذبٌ ـ للوصولِ إلى أغراضِهم.

وفي الكتابِ صفحاتٌ طوالٌ من رسائلِ العلماءِ الكبارِ عن ذكرياتِهم مع الشيخ نصيف وعنه، ومن أهم ما ينفع القارىءَ ـ وكلُّ ما في الكتابِ نافعٌ ـ كلمةُ شيخنا عبد العزيز بنِ باز، ورسائلُ الشيخ ابنِ عثيمين، وكلمةُ أستاذِنا الجليل ووالِدنا الشيخ علي الطنطاوي، ورسائلُ أستاذي الشيخَ محمد بهجة البيطار، ومكاتبات الدكتور تقي الدين الهلالي، وكلمةُ الصديق العزيز الشيخ حمد الجاسر.

أضفْ إلى ذلك صورَ رسائلِ الشيخ محمد نصيف الشخصية إلى الملوك والعلماءِ، ومن كان يتعاملُ معهم من مختلف أصنافِ الناس. ثم كلمات حفيديه الدكتور عبد الله عمر نصيف، وأخيه الأستاذ عبد الرحمٰن.. فإن فيهما من خصوصيات تعاملِ الشيخ مع أهله وفي بيته ومع الناس الشيءَ الكثيرَ.

ويكفي أن ننقل من مقدمة الكتاب الصفحة ٤٠ الأسطر التالية من كلام المؤلفين الكريمين: الأخ الشيخ محمد سيد أحمد والأخ الشيخ عبده العلوي:

«وانطلاقاً مما وقفنا عليه في هذه السجلاتِ الوثائقيةِ، وما سمعناه من أفواهِ معاصريه، وما أخذناه من بطونِ الكتبِ بهذا الصدد، جعل مقدمتنا هذه تدور حول موضوعاتِ خُطّة البحث المأخوذة من محتويات الرسائلِ الواردةِ إلى الشيخ محمد نصيف نفسِه، والصادرةِ عنه، إلى علماءِ وأعيانِ عصره، وفي ثلاثة تياراتٍ سياسيةٍ تجاذبت الحكمَ على موقعه وموطنهِ الحساسِ عقوداً من الزمن تزامنت مع رَيْعان شبابه.

وكان من الأكمل أن نتوسع في الكشفِ عن جوانبَ لا تزال خفيةً من حياة هذا العالمِ ودورهِ في إثراء الثقافةِ الإسلامية، ودورِ حفدته من بعده، غير أنّ رغبةَ الناس في الاختصارِ وتقليصِ المعلومات،

جعلتْنَا ملزمين بأتباعِ أقصرِ الطرق في معالجة قضايا وجوانبَ متعددةٍ من حياة هذا العالم.

ومما تجدر الإشارةُ إليه، أن أحدنا (محمد بن أحمد سيد أحمد) قد قام بزيارةِ (بيروت) مرتين، وجلس بها المُدّة لمتابعة سير العمل حَسَبَ المنهجِ الذي ارتضيناه.

وقد شاركه الأخ الشيخ زهير الشاويش في الكثيرِ من النواحي العلمية والفنية، لمعرفتهِ القويةِ والطويلةِ بالشيخ محمد نصيف، مما كان سبباً في إثراءِ هذا الكتاب من الناحية العلمية، وقد قام الإخوةُ في المكتب الإسلامي بإرسال تَجَارِب الطبع إلى مكةَ المكرمةِ مراتٍ متعددةً، قمنا خلالها مع حفدة الشيخ بمراجعتها».

وهذا ما ما أضيف إليه من محسّنات، جعلت منه كتاباً لا غنى عنه لمن يريد معرفة الشيخ محمد بن حسين نصيف، رجل الخيرِ والدعوةِ إلى الله، فقد كان مثالاً صالحاً أهلاً للاقتداءِ بخلاله

الحميدةِ فيما نَحْسَبُ، ولا نزكيً على الله أحداً. والله أسأل أن يجعل من أهله خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ.

وبورك في جُدّة عروسِ البحر الأحمر، وميناءِ بيت الله الحرام.

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

# فهرس المحتويات


محمد نصيف ذكريات لا تنسى.. ..... ٣
بيت نصيف ..... ٧
أصحاب نصيف وأهله ..... ١٠
السلفية والشيخ محمد ..... ٢١
محمد نصيف صاحب المرامي ..... ٢٤
محمد نصيف مداعباً ..... ٢٥
كتاب محمد نصيف ـ حياته ـ وآثاره ..... ٢٩